مغارة الرماد

بحضرة احمد بك كيب مفتش الآثار المصرية وامينها

لما فرغتُ من مغارة الصاغة انطلقت نحو الجنوب لاكتشاف باقي المغارات وما زلت انتقل من واحدة الى اخرى ولا اجد فيها عظيم فائدة حتى اتيت مغارة الرماد في الجنوب الشرقي من محطة المعصرة وعلى نحو خمسين دقيقة منها وبينها وبين مغارة الصاغة نحو عشرين دقيقة

وصيت هذه المغارة طائر عند سكان تلك الجهة لكنهم يعدونها في الدرجة الثانية بعد مغارة الصاغة لصغرها ولا جرم ان يكون لها عند علماء الآثار شأن عظيم متى اطلعوا على ما فيها فنجعل في المرتبة الاولى نظرًا الى النتائج العلمية الاثرية التي تستنبط من شكلها الشجري الذي انفردت به فضلاً عن انتظام طرقها واتساع مسالكها وارتفاع سقفها وخلوّها من رجوم الحجارة الاَّ القليل من سراديبها . وبالجملة فان زائرها لا يخشى ان يضلَّ فيها . ولا اعلم لماذا سميت بهذا الاسم وهي خالية من الرماد وكان الاجدر ان تسمى مغارة الشجرة لكي يطابق الاسم المسمى

ولسكان تلك الجهات حكايات كثيرة يصدقها السذَّج فيقولون انها تقرب من مغارة الصاغة في كثرة سراديبها وطولها وان فيها شيئًا كثيرًا من الكنوز والدفائن الباقية من عهد الفراعنة وكلها محجوب بالطلاسم والارصاد وقد وكلوا بها كلبًا كبيرًا رمادي اللون يضلُّ من يدخلها فيموت فيها . وقال لي رجل من اقارب حرب الخفير المتقدم ذكرهُ انهُ رأى في صباهُ قسيسين من الافرنج اتوا ليلاً ومعهم الشمع والبخور واخذوهُ معهم الى المغارة فدخلوها واوقدوا الشموع وجعل واحد منهم يهمهم ويتمتم ويتلو العزائم و يطلق دخان البخور فانفكت الطلاسم وخرج من المغارة كلب كبير كالحمار ووقف امامهم وجعل يتصبص بذنبهِ و يشير اليهم ليتبعوهُ فاعطوهُ (اي الرجل المتكلم) فضلة شمعة موقدة وشمعتين اخريين وعلبة كبريت وامروهُ ان لا يبرح مكانهُ ثم اقتفوا اثر الكلب . فلما بعدوا عنهُ اوجس خيفة وقام يتبعهم فعادوا اليهِ واوسعوهُ ضربًا وهموا بقتلهِ ففرَّ منهم . ولما انتهت الشمعة الموقدة عالج الشمعتين الاخريين ليوقدهما فلم يستطع فقام يمشي في السراديب على غير هدىً ويتخبط في الظلام الى ان خرج عند الفجر من مغارة ثانية فمكث عندها برهة واذا بالقسوس مروا بهِ يمشون المويتا يحمل كلٌّ منهم حقيبتهُ ويتوكأ على عكازهِ وقد انحنى ظهرهُ من ثقل ما يحملهُ من المال . فقلت لهُ وكيف علمتَ انهُ مال فقال يا سبحان الله أكان حجارة

وأخبرني حرب الخفير انهُ رأى في حداثتهِ مغربيًا كان يأتي كل سنة في يوم مخصوص

الى مغارة الرماد ويطلق البخور ويصيب من مائها شيئاً وفي بعض السنين اتى كعادته ولم يكن معهُ احد فاكلتهُ الضبع وقد رأينا راسهُ وثيابهُ. وامثال هذه الحكايات كثيرة

وشكل مغارة الرماد كشكل شجرة مع صنوها اي كشجرتين متجاورتين الواحدة كبيرة والاخرى صغيرة. وفي الصغيرة منها فسحة كجذع الشجرة يخرج منها ثلاثة سراديب كالفروع وفي كل سرداب منها فروع اخرى ينتهي بعضها بأروقة صغيرة تشبه الزهر. وفي اسفل الجذع سراديب صغيرة كالجذور تنتهي بابواب المغارة وهي رمز عما يعرف في علم النبات بالاقدام الاسفنجيَّة التي في آخر الجذور. وفروع هذه المغارة قصيرة لا يزيد اطولها على ثلثمئة متر وارتفاع جدرانها الى اربعة عشر متراً وسقفها مستوٍ يعترضهُ تموُّج لطيف وفي بعض السراديب زوايا مجسمة داخلة في جدرانهِ او بارزة منها تشبه الورق في الاغصان غير ان شكلها الشجري لا يظهر جلياً الاَّ لمن اعتاد رؤية الاشكال البرنائية (الاثرية) وفكَّ رموزها ولو رسمت هذه المغارة على ورقة لظهرت بشكلها الشجري متصلة بكامل اجزائها

اما الشجرة الثانية اي المغارة الكبرى فعن يمين الاولى وبعض اغصانها الاسفنجيَّة اي ابوابها مشترك بين الشجرتين ولها جذع عظيم يتصل بالاقدام الاسفنجيَّة وهي ستة ويمتد منهُ ساق عظيم يتجه الى الشمال الشرقي يتفرع منهُ فروع كثيرة عن اليمين وعن اليسار ويخرج من كل فرع فُرَيعات كثيرة ومن هذه فريعات اصغر منها وكلها سراديب ينتهي بعضها بزهرة كالصليب شكلاً او ربما يشبه زهر البشنين المقدَّس عند القدماء. وهذه الازهار فجوات لطيفة او مقاصير صغيرة متجاورة. وطول بعض السراديب من الجذع الى الزهرة الف متر او اكثر. واذا سار الانسان في الساق رأى عن يمينهِ باباً يفضي الى سرداب قصير مقطوع بسرداب آخر موازٍ للساق ثم ينحرف الى الشرق وتتشعب منهُ شعاب كثيرة مشتبك بعضها ببعض وهي مملوَّة بالحجارة المتهدِّمة من السقف فيتعذَّر السير فيها ويخرج منها فروع كثيرة تتجه غرباً وشرقاً وفي نهايتهِ الشمالية سراديب نظيفة خالية من الحجارة واسعة مرتفعة وكلها مسدودة من طرفها. وفيها خفافيش مثل مغارة الصاغة ولكنها تكاد تكون انيسة لانها لا تؤذي الداخل ولا تطفئ نورهُ كما تفعل خفافيش مغارة الصاغة

ورأيت ارض هذه السراديب النظيفة مغطاة بحجارة الحجارة وفيها تقويس قليل في وسطها مع انخفاض قليل على جانبيهِ فعلمت انهُ اثر عجل العربات ووجدت في الارض فضلات حلفا وفول وحشائش اليفة وقش قمح صار كالهباء فعلمت ان السراديب كانت مفروشة بها حتى لا يجرز العجل الارض وثبت لي حينئذٍ ان نبات الحلفا قديم في هذا القطر وانهُ كان يوضع تحت

عجل العربات لكي لا تحز الارض. وقست ما بين اثر العجل فوجدتهُ نحو متر وخمسة وثلاثين سنتيمترًا ورأيت في بعض السراديب كتابات عالية تكاد تبلغ السقف من فتات الحجارة وهشيمها تكنت اصعد عليها فارى في السقف خطوطًا حمراء او زرقاء تمرُّ طولاً او عرضًا او بالانحراف وكلها اشارات وضعها المهندسون للحجَّارين لكي لا يميلوا يمنةً او يسرةً . او حدود فاصلة بين العمل القديم والحديث او حدود لتقسيم العمل . وكثيرًا ما كنت اجد حروفًا هيروغليفية ويغلب على ظني ان المهندس كان يضع حرفًا بدل جملة او كلة حسب اصطلاحهم في ذلك الزمن

وفي آخر سرداب منها عن اليسار صفيحة في الحائط مربعة مما يعرف عند علماء الآثار بالاستيل وهو الحجر الذي ينصب فوق القبر وقد اسودَّت من ذرق الخفافيش وهي على علو ثلاثة امتار ونصف وتحتها حفرة حفرها من ظنَّ فيها كنزًا حاسبًا ان الصفيحة تدلُّ على شيء تحتها. واتيت بسلَّم وصعدت عليهِ فرأيت على الصفيحة كتابة قديمة وصورة ملك على رأسهِ تاجا مصر وهو واقف بعبد معبودين من المعبودات المصرية لكن ذلك كلهُ مسودٌّ مشوَّهٌ بما لصق بهِ من ذرق الخفافيش . وتحت الصفيحة في اسفل السرداب حوض من الحجر يسع اربعين رطلاً من الماء قد اسودَّ باطنهُ بالسناج . وفيهِ قطعة من الخشب قدر الكف محروقة عليها قطعة طين قدر البندقة الصغيرة مشقوبة قد فعلت النار بها حتى اسودَّت وكادت تتكلَّس فعلمت انها كانت كالعوامة في قناديل الزيت . ثم لمست السناج فوجدتهُ دسمًا فتبيَّن لي انهُ ناتج من احتراق الزيت الحار او زيت الشيرج والظاهر ان هذا الحوض كان يملأ بهِ ويسرج في عبادة المعبودات القديمة وربما مزجوا الزيت بشيء من الطيوب ولعلَّ ما نراهُ الآن من ايقاد المصابيح في المعابد ولو نهارًا مقتبس من عادة المصريين الاقدمين . وفي جوار هذا الحوض حوض آخر على هيئة المسرجة كان يستعمل للاستصباح وقت قطع الحجارة وفي جواره حوض ثالث كالحوض الاول لكنهُ مكسور ومطروح بين الحجارة

وذات يوم كنت اطوف في تلك السراديب فعثرت رجلي اليمنى وسقطت وكان الفانوس في يدي اليمنى والقلم والقرطاس في اليسرى ولفحص طالعي اصابت قصبة ساقي حجرًا محدَّدًا فقطع اللحم وغار فيهِ الى العظم وسال دمي فاقبل الخفير الذي كان معي ونزع عمامتهُ ومزقها وربط رجلي بها فلم يوقف نزف الدم فحك حجرين واخذ من حكاكتهما ووضعها على الجرح وهو يقول هذا مرهم العرب ثم ربطهُ بما بقي من العمامة وساعدني على الخروج من المغارة. ومضى شهران قبل ان التأم الجرح تمامًا لكنني لم انقطع عن المغارة غير يومين وفي اليوم الثالث عدت اليها

وسراديب هذه المغارة غير ما ذكر منها نظيفة مستوية يسهل السير فيها حتى كنت اعدو فيها عدوًا والمصباح في يدي وانا حاسر الراس ليس على بدني غير القميص والسراويل فاتذكر قول من قال

والمشتري يعلو الصباح كأنهُ عريان يمشي في الدجى بسراج

وكنت ارى في نهاية بعضها سلمًا منصوبةً في الصخر وهي ثقوب متوالية لا تتسع غير اصابع الرجل تصعد الى نحو ١٦ مترًا حتى تبلغ السقف. وكثيرًا ما كنت اقف وافكر في امر هذه المغارة وما كان يجري فيها في القرون الغابرة فارى نفسي كأني واقف اشاهد حركات العمال واجتهادهم وعتوّ الرقباء واستبدادهم. وكأني اسمع صوت سقوط الحجارة من اعالي السراديب وارى انقضاض الرجال عليها ورفعها الى العربات وجرها الى خارج المغارة. واحيانًا تنسيني احيانًا واقفًا مع المهندسين وارام يوزعون العمل على العمال ويشيرون ما تمّ منهُ ويرسمون الخطوط والاشارات على السقف او ارائي امام الصهريج الآتي ذكرهُ والباقي جالس فوق مسطبته يغرف الماء على الفعلة والكوز في يدهِ يسقي بهِ العطاش من صغار العمال. او امرُّ مع المقدمين وارام يسومون العمال الخسف والعصي في ايديهم يقرعونهم لكل متوانٍ متباطئ او اجول مع المباشرين والرؤساء في الدهاليز وهي منارة بالمصابيح الحجرية والوقادون يذكون ما طفئ منها والرؤساء يزجرون شيوخ العمال ويتهدّدونهم. واصوات المعاول تصمّ الآذان والحجارة تتدحرج من اماكنها والحاتون يحنون جوانبها والقطّاعون ارتقوا على السلالم وتعلّق كلٌّ منهم بيدهِ اليسرى باحدى رجليهِ واخذ بيدهِ اليمنى آلة يعالج بها الصخر ليقطعهُ وهو عريان ليس عليهِ الاَّ قربطة تستر سوأتهُ وبجانبهِ شيخ المحجارين وقد قطع حجرًا كبيرًا ورماهُ الى الارض وهو يحاول ان يقف في مكانهِ ويقطع حجرًا آخر. وخارج المغارة سوبقة يباع فيها تافه الطعام والثيران الكبيرة تقبل وتدبر لجر العجل ونقل الحجارة

واما الصهريج المشار اليهِ آنفًا فالى يمين الداخل من الباب الكبير في جوار الباب الجنوبي يعلو عن الارض نحو متر واسفلهُ اوسع من اعلاهُ وبجانبهِ مسطبة اعلى منهُ قليلاً يجلس الساقي عليها. وقد قستهُ فوجدت طولهُ ٩٠ سنتمترًا وعرضهُ ٨٠ هذا من اعلاهُ واما من اسفلهِ فطولهُ متر وخمسة عشر سنتيمترًا وعرضهُ ٩٠ سنتيمترًا وارتفاعهُ متر واربعون سنتيمترًا فمساحتهُ الوسطى نحو متر وربع اي انهُ يسع تسع عشرة قربة او نحو الف ومئتين وثلاثين لترًا من الماء فهو يكفي الفًا ومئتي انسان اذا مُلئ مرة واحدة في اليوم وعلهُ كان يملأ مرارًا

ولا ادري من صنع هذا الحوض ولا من حفر هذه المغارة ولا المباني التي قطعت حجارتها

لها ولكن خطر لي ان الوسيلة لمعرفة ذلك كلهِ هي الصفيحة الحجرية المشار اليها آنفاً فقصدتها في العشرين من شهر اكتوبر الماضي ومعي سلم من الخشب وثلاثة رجال من العرب وماء وفرشاة وقليل من البوتاس فصعدت الى الصفيحة وغسلتها حتى نظفت مما عليها فرأيت فيها صورة

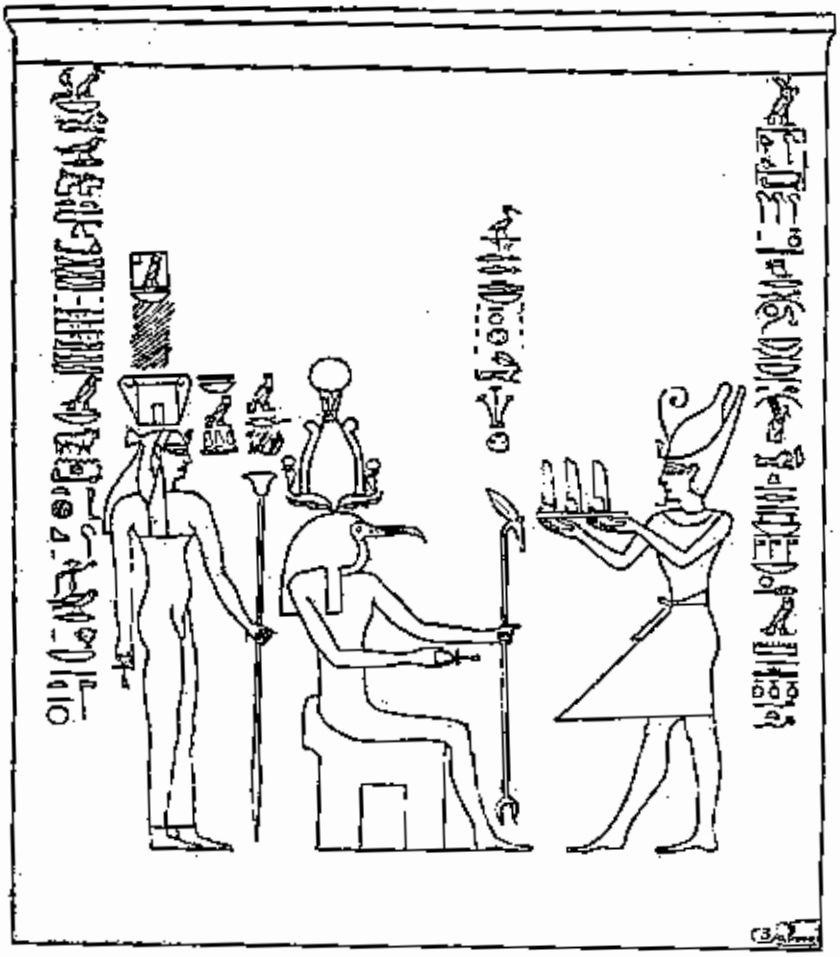

صفيحة الاسكندر في مغارة الرماد من رسم حضرة احمد بك كمال الامين الوطني في دار التحف المصرية

ملك طلق المحيا وسيم الوجه وهو يعبد معبودين المعبود توت ولهُ منقار طائر وفوق رأسهِ تاجهُ المضاعف ذو القرنين وخلفهُ المعبودة نُيهِمْ وَيْث تحمل تاجها البديع وعلى يمين الصفيحة ويسارها سطران بالقلم البربائي لكنهما القاب ملكية وعناوين سلطانية خالية من التواريخ

والفوائد العلمية . ولما امعنت النظر فيها بان لي اسم اكبر ملوك الارض ألا وهو الاسكندر المكدوني فعجبتُ من ذلك وايقنت انهُ ليس صاحب هذه المغارة لان مدة حكمهِ على مصر لا تكفي لعمل مثلها ولا يمكن نسبتها اليهِ بوجه من الوجوه . ولكن ما السبب لوجود صورتهِ فيها هل جاءها زائرًا فصوروهُ وكتبوا اسمهُ فيها او امر بقطع حجارة منها او محا اسم صاحبها ونقش اسمهُ بدلاً منهُ لتكون لهُ في الآثار المصرية شهرة كاذبة كما فعل بعض الفراعنة قبلهُ . او اتخذ المصريون هذا المكان معبدًا لهُ يقدسونهُ فيهِ امام معبوداتهم . وهل صُنعت هذه الصنيعة مدة ملكهِ او بعدهُ في عهد البطالسة ذلك كلهُ غامض حتى الآن . ومن الغريب انهُ رُسم هنا كالفراعنة وعلى رأسهِ تاجا مصر كما ترى في هذا الرسم وعلى يدهِ مائدة عليها بلت رمزًا الى تقديمهِ خيرات مصر لمعبوداتها او شكرهِ لها على عليها والمعبودان المرسومان فيها تحوت وهو يقدم للاسكندر نصيب الملك والحياة الابدية والمعبودة نُهِم وَيت او هاتور وهي تقدم لهُ نصيبًا من البشمين رمز الخيرات والبركات وتقدم لهُ ايضًا رمز الحياة الابدية كأنهما يقولان لهُ دُم ملكًا في حياة دائمة وعيش رغيد

ومن الآثار التاريخية في هذه المغارة ايضًا خانة (ختم) ملكية على جدار قائم بين السرداب العظيم وسرداب آخر بجانبهِ وهي تحت السقف وفيها اسم الملك هاقار او هوقور احد ملوك الدولة التاسعة والعشرين وعلى يمينها حروف برنائية . وامام الصهريج خانة أخرى فيها اسمهُ وكلها مكتوب بالمداد الاحمر ويبعد عن الظن ان المغارة صنعت في عهد هذا الملك لان مدة ملكهِ قصيرة وقد قضاها في التعيشات الحربية

ومن المحقق ان هذه المغارة صنعت ايام الفراعنة الاول وهي من اعجب الآثار المصرية لانها على شكل شجرة ولعلها شجرة جميز . ولولا النقوش الدينية التي في مدفن سقي الاول في ابواب الملوك لكانت هذه المغارة اعظم منهُ . وكان المصريون يرسمون شجر الجميز على قبور موتاهم والصفائح التي ينصبونها فوقها و يصنعون منهُ التوابيت والتماثيل كما ترى في التمثال المعروف بشيخ البلد . وكانوا يزعمون ان في الصحراء جميزة يسكنها ثالوث من معبوداتهم وتأوي اليها ارواح الناس بعد الموت ولم يزل العامة في هذا القطر ينظرون الى شجر الجميز نظرًا يمازجهُ الوقار الديني

اما الحجارة التي استخرجت منها فتبلغ نحو ثمانمئة وثمانين الف متر مكعب لان طول سراديبها نحو عشرة الاف متر ومتوسط اتساعها ثمانية امتار ومتوسط عرضها احد عشر مترًا فقد اقتضى قطع حجارتها مدة طويلة في ذلك العهد عهد الاستبداد اما الآن فتقضي في اكتشافها كلها سبعة ايام . ومن تأمل في شكلها العجيب وتفرع جذورها واغصانها واوراقها تعجب من

مهارة مهندسها وادماجه الشعائر الدينية بالحقائق النباتية العلمية مع براعته في فن الهندسة فانهُ استخرج الحجارة للبناء وجعل مكانها معبدًا في شكل مقدَّس عند اهل زمانهِ

الاسكندر ذو القرنين

واقعة اسوس

صورة راس الاسكندر وهو بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرهِ

غادر الاسكندر وهو زاحف لملاقاة داريوس في واقعة اسوس وكان في الثالثة والعشرين من عمرهِ وقد مضى لهُ سنتان ونصف سنة على كرسي الملك ال في دار الحرب لانهُ قضى سنة ونصفًا يعزز سلطتهُ في بلاد مقدونية وبلاد اليونان ثم زحف على آسيا فقهر جيوش الفرس في واقعة غرانيكوس ودخل سرديس ولم تمضِ عليهِ سنة حتى دوَّخ آسيا الصغرى كلها فدانت لهُ بلاد طولها مئتان وخمسون ميلاً في مثلها عرضًا وهي بين بحر الجزائر والبحر الاسود فتحها باسم اليونان ولاجلهم ولكنهم لم يعرفوا لهُ هذا الجميل ان كانوا يتربصون به فرص الدهر . ولولا موت ممنون القائد اليوناني في جيش الفرس لعمل على داريوس ان يثير اليونان على الاسكندر